شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

ذكرى الكرامة

لم تكن الكرامة ، التي مرت ذكراها السابعة في الشهر الماضي ، بوقائعها العسكرية فحسب ، ولا بالنصر المباشر الذي ترتب على هذه الوقائع على عظمة النصر وجلاله ، وانما هي في الدرجة الاولى مثلت مختبرا لكل اطروحات المقاومة وصدق تنظيراتها . فالنصر الذي تحقق ، على الرغم من انه كان نصرا باهظ التكاليف ، او لانه كان نصرا باهظ التكاليف ، صنع من الكرامة رائز الفرضية الثورية الفلسطينية ، واوصل هذه الفرضية من خلال الممارسة التجريبية الى مستوى النظرية بل المسلمة . ان اللبنة الاولى التي بنت عليها حركة المقاومة بنيانها الثوري هي ان عنصر الحسم في حرب الفقراء ، حرب الجماهير في مواجهة آلة الحرب المتفوقة المتطورة المنيعة ، هو العنصر البشري ، الانسان المسلح بارادة القتال حتى أسنانه . فبكل مقاييس موازين القوى العسكرية كان لا بد ان تكون الكرامة « حماقة فلسطينية » او مغامرة غير محسوبة المعطيات والنتائج لولا هذه اللبنة الاولى . فعلى جانب كانت القوات الاسرائيلية التي انتصرت قبل أشهر قليلة انتصارا نادرا في التاريخ على عدد من الجيوش العربية ، وعلى هذا الجانب كان التفوق العسكري المشبع من أخمص القدم حتى قمة الرأس بجميع الوسائل التكنولوجية وآلات الدمار المتوفرة لدى جيش « لا يقهر » . وعلى جانب آخر كان مئة وبضع عشرات بأسلحتهم الفردية (كثير منها كان صدئا جمع بعد ان اسقطته الجيوش التي حاربت في حزيران) يتصدون لآلة الحرب المتفوقة ، بارادة القتال وبارادة النصر . وعلى الرغم من ان هاتين الارادتين غير قابلتين لان توضعا في مختبر المقاييس الكمية او العددية فقد مثلت الكرامة هذا المختبر الذي جعل من « الحماقة » نصرا هو الاول من نوعه منذ عقود ، وكان هذا النصر المشهود البرهان العلني الاول الذي تقدمه حركة المقاومة الفلسطينية على فعالية حرب الشعب ومقدرتها على مواجهة التفوق الذي يتمتع به الخصم . كما كان الاثبات التجريبي الاكثر مصداقية للفكرة التي روجت لها الثورة الفلسطينية حتى قبل البدء بعملها العسكري وهي ان تأجيل الصدام مع العدو الى ان يستكمل الجانب العربي قوته المتكافئة مع قوة العدو سواء تأتى هذا التكافؤ من مصدر الوحدة أم من مصدر البناء العسكري ، انما هو وهم وركض خلف سراب ، ما دام تفوق العدو لا ينبع من مقدرته الذاتية المحضة وانما هو تفوق من خلال ارتباطه العضوي بالمعسكر الامبريالي المعني بالمحافظة على الوجود الاسرائيلي في المنطقة قوة تهديدية واستنزافية هائلة قادرة على ان تكون القاعدة الامامية لهذا المعسكر بكل امكاناته وقدراته . وبذلك فان « سباق التكافؤ » كان وسيظل محكوما بالفشل لمصلحة الجانب الاسرائيلي ما لم تجر معادلته ثم التفوق عليه بمخزون الطاقة البشرية التي اثبتت تاريخيا ومن خلال ثورات الشعوب ونضالاتها التحررية ، انها المعادل الموضوعي لطغيان القوة المادية (العسكرية وغيرها) المتوفرة لدى المعسكر الامبريالي . غير ان تفجر هذا المخزون البشري ، الذي راهنت الثورة الفلسطينية عليه ، كان يتطلب وضعه مباشرة في قلب التحدي واثارة حوافزه لا بالخطب المذياعية والتنظيرات ، وانما من خلال مواجهات